(السنة الرابعة عشرة)

العدد الثانى — ابريل - يونيه ١٩٤٨

صحيفة دار العلوم

تصدرها «جماعة دار العلوم»

كل ثلاثة أشهر

المدير — رئيس التحرير

محمد نجيب هاشم — محمد على مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير
بنادى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية

ترسل باسم أمين الصندوق

السباعى بيومى

وكيل كلية دار العلوم
مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوى

فى القطر المصرى	٢٠ قرشاً
خارج القطر	٣٠ قرشاً
ثمن العدد	٥ قروش

مطبعة العلوم بشارع الخليج

إِنَّ بَاحِثًا مُدَقِّقًا لَوْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ أَيْنَ تَمُوتُ
اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَأَيْنَ تَحْيَا، لَوَجَدَهَا تَمُوتُ فِي كُلِّ مَكَانٍ
وَتَحْيَا فِي دَارِ الْعُلُومِ»

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

ولا خصّ به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده ، وجعل كل قديم منهم حديثا فى عصره ، وكل شريف خارجيا فى أوله » إلى أن قال فى موضع آخر « ولا أحسب أحداً من أهل المعرفة والتمييز ، نظر بعين العدل وترك طريق التقليد ، يستطيع أن يقدم أحداً من المتقدمين على أحد ، إلا أن يرى الجيد فى شعر المكثرين ، أكثر منه فى شعر غيرهم »

٣ ـــ أراد ابن قتيبة أن يخضع النقد الأدبى ، من حيث استحسان الشعر أو استهجانه للأقيسة العلمية ، دون مساس منه بالناحية الأدبية والذوق ، فجعل الشعر لفظا ومعنى ، ونظر إلى اللفظ من ناحية الحسن وغيره ، وإلى المعنى من ناحية الجودة وغيرها ، ثم داخل بين هذين وهاتين ، وإذا به يجعله أربعة أضرب ـــ فيقول فى ذلك اقتصرنا ـــ فيما قال أحيانا على بعض شواهده دون بعض ـــ من تلك المقدمة أيضاً :

« تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب ، ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه ، كقول أوس بن حجر « فى رثاء فضالة بن كلدة » .

أيتها النفس أجملى جزعا إن الذى تحذرين قد وقعا

لم يبتدىء أحد مرثية بأحسن منه ، وكقول أبى ذؤيب « فى رثاء بنيه »

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

حدثنى الرياشى عن الاصمعى أنه قال ، هذا أبرع بيت قالته العرب ، وكقول حميد بن ثور :

أرى بصرى قد رابنى بعد صحة وحسبك داء أن تصح وتسلما

لم يقل أحد فى الكبر أحسن منه ، وكقول النابغة :

كلينى لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطىء الكواكب

لم يبتدىء أحد من المتقدمين بأحسن منه ولا أغرب ، وكقول القائل « الفرزدق فى مدح زين العابدين »

فى كفه خيزران ريحه عبق من كف أروع فى عرنينه شمم
يغضى حياء ويغضى من مهابته فلا يكلم إلا حين يبتسم

ومثل هذا فى الشعر كثير ، وليس للاطالة فيه وجه ، وستراه عند ذكر أخبار الشعراء .

وضرب منه حسن لفظه وحلا ، فاذا أنت فتشته لم تجد هناك طائلا ، كقول القائل « كثير عزة »

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالاركان من هو ماسح
وشدت على حدب المهارى رحالنا ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الاحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الاباطح

وهذه الألفاظ أحسن شىء مطالع ومخارج ومقاطع ، فاذا نظرت إلى ماتحتها وجدته ؛ ولما قضينا أيام منى ، واستلمنا الأركان ، وعالينا إبلنا الأنضاء ، ومضى الناس لاينظر من غدا الرائح ، ابتدأنا فى الحديث ، وسارت المطى فى الأبطح ، وهذا الصنف فى الشعر كثير ، ونحو منه قول جرير :

إن الذين غدوا بلبك غادروا وشلا بعينك لا يزال معينا
غيضن من عبراتهن وقلن لى ماذا لقيت من الهوى ولقينا

وقوله :

إن العيون التى فى طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لاحراك له وهن أضعف خلق الله إنسانا

وضرب منه جاد معناه وقصرت الألفاظ عنه ، كقول لبيد :

ما عاتب الحر الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

فهذا وإن كان جيد المعنى والسبك ، فانه قليل الماء والرونق ، وكقول النابغة للنعمان :

خطاطيف حجن فى حبال متينة تمد بها أيد اليك نوازع

رأيت علماءنا يستجيدون معناه ، ولا أرى ألفاظه مبينة لمعناه ، لأنه أراد ، أنت فى قدرتك على كخطاطيف عقف ، وأنا كدلو تمد بتلك الخطاطيف ، وعلى أنى لست أرى المعنى جيداً :

وضرب منه تأخر لفظه وتأخر معناه كقول الأعشى :

إن حلا وإن مرتحـــلا وإن فى السفر إذ مضوا مهلا
استأثر الله بالوفاء وبالحمـــد وولى الملامة الرجـــلا
والأرض حالة لما حمل الله وما إن ترد ما فعلا
يوما تراها كشبه أردية العصـــب ويوما أديمها نغلا

وهذا الشعر منحول لا أعرف فيه شيئاً يستحسن إلا قوله :

يا خير من يركب المطى ولا يشرب كأساً بكف من بخلا

يقول إن كل شارب يشرب بكفه ، وهذا ليس ببخيل فيشرب بكف من بخل ، وهو معنى لطيف .

على هذه المقاييس كان ابن قتيبة يقيس الشعر من قديم ومحدث ، من حيث حسن اللفظ وجودة المعنى على وجه الاجمال ، ولكنه لم يخل مقدمة كتابه من بعض تفاصيل تخرج عن هذا النطاق ، فانك لتراه بعد ذلك يقول :

« وليس كل الشعر يختار ويحفظ على حسن اللفظ وجودة المعنى ، ولكنه قد يختار على جهات وأسباب أخرى ،

منها الاصابة فى التشبيه كقول القائل فى القمر « على وجه التحسين »

بدأن بنا وابن الليالى كأنه حسام جلت عنه القيون صقيل
فما زلت أفنى كل يوم شبابه إلى أن أتتك العيس وهو ضئيل

وكقول الآخر فى مغن « على وجه التقبيح »

كأن أبا السمى إذا تغنى يحاكى عاطساً فى عين شمس
يلوك بلحيه طورا وطورا كأن بلحيه ضربان ضرس

ومنها خفة الروى كقول القائل :

ولو أرسلت من حبيـــك مبهوتا من الصين
لوافيتك عنـــد الصبـــح أو حين تصلين

ومنه ما يختار ويحفظ ، لأن صاحبه لم يقل غيره فقل شعره ، كقول أبى عبدالله ابن أبى سلول المنافق

متى مايكن مولاك خصمك لاتزل تذل ويعلوك الذى لاتصارع
وهل ينهض البازى بغير جناحه فان قص يوما ريشه فهو واقع

وقد يختار ويحفظ لأنه غريب فى معناه ، كقول القائل فى مجوسى

شهدت عليك بطيب المشاش وأنك بحر جواد خضم
وأنك سيد أهل الجحيم إذا ما ترديت فيمن ظلم
قرين لهامان فى قعرها وفرعون والمكتنى بالحكم

وقد يحفظ ويختار لنبل قائله ، كقول المأمون « فى رسول الى محبوبته »

بعثتك مشتاقا ففزت بنظرة وأغفلتنى حتى أسأت بك الظنا
وناجيت من أهوى وكنت مقربا فياويح نفسى عن دنوك ما أغنى
ورددت طرفا فى محاسن وجهها ومتعت باستسماع نغمتها أذنا
أرى أثراً منها بعينك لم يكن لقد سرقت عيناك من عينها حسنا

« فهذا شعر شريف بصاحبه وبنفسه »

٣ - وقد تعرض ابن قتيبة للمتكلف والمطبوع من الشعراء ، فكان مما قال فى تلك المقدمة أيضا ، ومن الشعراء المتكلف والمطبوع ، فالمتكلف هو الذى قوم شعره بالثقاف ، ونقحه بطول التفتيش ، وأعاد فيه النظر ، كزهير والحطيئة ، وكان الأصمعى يقول « زهير والحطيئة وأمثالهما من الشعراء عبيد الشعر ، لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين » وكان زهير يسمى قصائده بالحوليات ، وكان الحطيئة يقول ، خير الشعر الحولى المنقح المحكك ، وقال سويد بن كراع يذكر تنقيحه لشعره .

أبيت بأبواب القوافى كأنما أصادى بها سربا من الوحش نزعا
أكالئها حتى أعرس بعد ما يكون سحيرا أو بعيداً فأهجعا
إذا خفت أن تزرى على رددتها وراء التراقى خشية أن تطلعا

وقال عدى بن الرقاع فى ذلك :

وقصيدة قد بت أجمع بينها حتى أقوم ميلها وسنادها
نظر المثقف فى كعوب قناته حتى يقيم ثقافه منآدها

ثم قال ، والمتكلف وإن كان جيد الشعر محكمة ، فليس به خفاء على ذوى العلوم ، لتبينهم مانزل به من طول التفكر ، وشدة العناء ، ورشح الجبين ، وكثرة الضرورات ، وحذف ما بالمعانى حاجة اليه ، وإثبات ما بالمعانى غنى عنه ، إلى أن قال ، ويبين التكلف فى الشعر بأن ترى البيت مقرونا بغير جاره ، ومضموما إلى غير لفقه ، قال عبد الله بن سالم لرؤبة ، مت ياأبا الجحاف متى شئت ، قال وكيف ذاك ، قال إنى رأيت ابنك عقبة ينشد شعراً له أعجبنى ، قال نعم ولكن ليس لشعره قران ، يريد أنه لايقارن البيت بشبهه ، وقال قائل لآخر ، أنا أشعر منك ؟ قال وبما ذاك ، قال لأنى أقول البيت وأخاه وتقول البيت وابن عمه .

ذاك ماقاله ابن قتيبة عن التعريف بالمتكلف من الشعراء ، أما المطبوع فقد قال فى التعريف به ـ والمطبوع من الشعراء من سمح بالشعر ، واقتدر على القوافى ، وأراك فى صدر البيت عجزه ، وفى فاتحته قافيته وتبينت على شعره رونق الطبع ووشى الغريزة ، وإذا امتحن لم يتلعثم ولم يتدجر « أى يتحير » قال الرياشى : حدثنى أبو العالية عن أبى عبدان المخزومى قال ، أتيت والياً كان على المدينة من قريش ، وعنده ابن مطير الشاعر ، وإذا مطر جود ، فقال الوالى له صف لى هذا المطر ، قال دعنى أشرف عليه ثم نزل ثم عاد فقال :

كثرت لكثرة قطره أطباؤه … فاذا تحلب فاضت الأطباء
وله رباب هيدب لرنينه … قبل التبعق ديمة وطفاء
وكأن ريقه ولما يحتفل … ودق السماء ، عجاجة كدراء
وكأن بارقه حريق تلتقى … ريح عليه عرفج وألاء
مستضحك بلوامع ، مستعبر … بمدامع لم تمرها الأقذاء
فله بلا حزن ولا بمسرة … ضحك يؤلف بينه وبكاء
حيران متبع صباه تقوده … وجنوبه كنف له ووعاء
غدق ينتج فى الاباطح فرقا … تلد السيول وما لها أسلاء
غر محجلة دوالج ضمنت … حمل اللقاح وكلها عذراء

سحم فهن إذا كظمن سواجم ، سود وهن إذا ضحكن وضاء
لو كان من لجج السواحل ماؤه لم يبق فى لجج السواحل ماء

فهذا شعر مع إسراعه كما ترى ، كثير الوشى لطيف المعانى . إلى أن قال عن اختلاف الطبع فى الشعراء ، والشعراء فى الطبع مختلفون ، فمنهم من يسهل عليه المديح ويتعذر عليه الهجاء ، ومنهم من تسهل عليه المراثى ويتعذر عليه الغزل ، قيل للعجاج إنك لا تحسن الهجاء فقال « إن لنا أحلاما تمنعنا من أن نظلم وأحسابا تمنعنا من أن نظلم ، وهل رأيت بانياً لا يحسن أن يهدم » قال ابن قتيبة ولكن ليس هذا كما ذكره العجاج ، ولا للمثل الذى ضربه ، لان المديح بناء والهجاء بناء ، وليس كل بان لضرب بصيراً بغيره ، ونحن نجد ذلك بعينه فى أشعارهم ، فهذا ذو الرمة أحسن الناس تشبيبا ، وأجودهم تشبيها ، وأوصفهم لرمل وهاجرة وفلاة وماء وحية وقراد ، فاذا صار إلى المديح والهجاء خانه الطبع ، وذلك الذى أخره عن الفحول ، فقالوا . فى شعره أبعار غزلان ونقط عروس ، وكان الفرزدق زير نساء ، ومع ذلك لا يجيد التشبيب ، وكان جرير عفا عن النساء ، ومع ذلك أحسن الناس تشبيبا ، فكان الفرزدق يقول « ما أحوجه مع عفته إلى صلابة شعرى ، وأحوجنى إلى رقة شعره ، لما ترون »

وكما تعرض ابن قتيبة لاختلاف الطبع فى الشعر ، تعرض كذلك لأباء الطبع أحياناً على المطبوعين ، ولاستدعائهم له بكثير من الدواعى ، التى من شأنها حثهم بل بعث المتكلفين ، فقال عن الاباء ، وللشعر أوقات يبعد فيها قريبه ، ويستصعب فيها ريضه ، كمنثور الكلام فى الرسائل والمقامات والجوابات ، ولا تعرف لذلك علة ، إلا من عارض يعرض على الغريزة من سوء غذاء أو من خاطر غم ، قال الفرزدق أنا أشعر تميم عند تميم ، وربما أتت على ساعة ، ونزع ضرس أهون على من قرض بيت ، وله أوقات يسرع فيها أتيه ويسمح فيها أبيه ، منها أول الليل قبل تغشى الكرى ، وصدر النهار قبل الغداء ، ومنها الخلوة فى المجلس وفى المسير ، وبهذه العلل تختلف أشعار

الشاعر ورسائل الكاتب ، قالوا فى شعر النابغة الجعدى « منه خمار بواف ومطرف بآلاف » ولا أرى غير الجعدى فى هذا الحكم إلا كالجعدى .

وقال عن الاستدعاء ، وللشعر دواع تحث المطبوع وتبعث المتكلف ، منها الشراب ومنها الطرب ومنها الغضب ومنها الطمع ومنها غير ذلك . قال عبد الملك لأرطاة بن سهية هل تقول اليوم شعرا ، فقال كيف أقول وأنا لا أشرب ولا أطرب ولا أغضب ، وانما يكون الشعر بواحدة من هذه ، وقيل للحطيئة من أشعر الناس ، فأخرج لسانا دقيقا كأنه لسان حية وقال ، هذا اذا طمع ، وقال أحمد بن يوسف لأبى يعقوب الخريمى . مدائحك فى منصور بن زياد - كاتب البرامكة - أشعر من مراثيك فيه وأجود ، فقال كنا إذ ذاك نقول على الرجاء ، ونحن اليوم نقول على الوفاء ، وبينهما بون بعيد ، وهذه عندى قصة الكميت فى معرض بنى أمية وآل أبى طالب ، فانه يتشيع وينحرف عن بنى أمية بالرأى والهوى ، وشعره فى بنى أمية أجود من شعره فى الطالبيين ، ولا أرى علة ذلك إلا قوة أسباب الطمع ، وإيثار عاجل الدنيا على آجل الآخرة ، وقيل لكثير كيف تصنع يا أبا صخر إذا عسر عليك الشعر ، فقال ، أطوف فى الرباع المحيلة ، والرياض المعشبة فيسهل على أريضه ، ويسرع إلى أحسنه ، ويقال ما استدعى شارد الشعر بمثل الماء الجارى والشرف العالى والمكان الخضر الخالى .

رابعا - أدباء الفلاسفة - لم يكد هذا العهد يتنصف ، حتى كانت معارف العرب المنقولة عن غيرهم فى المنطق والبلاغة ، ولا سيما عن اليونان ، قد اكتملت وأصبحت ذات كيان فى كتب مستقلة . ومن هنا بدأ النقد الأدبى يتأثر بالمنطق والبلاغة ، على أيدى بعض رجاله ، مع عدم صلاحية هذين العلمين للدخول فى ميدان النقد ، فكان هذا التأثر مبعداً للنقد عن روحه الحق ، ومتجها به وجهة ضارة ، فأما من حيث المنطق ، فلأن الأدب يأبى أن يخضع لما تخضع له العلوم ، من قواعد وضوابط ، يضعها العقل ويهيمن عليها المنطق كما سيأتى بعد . وأما البلاغة فلأنها حين ترجمت جاءت مأخوذة عن

أصول أجنبية ، لا يسكن اليها الذوق العربي السليم ، ثم وقعت ترجمتها على أيدى الفلاسفة والأعاجم ، الذين حرموا هذا الذوق .

وقد جاءت هذه الذهنية لأدباء الفلاسفة ، ممثلة فى شخصية قدامة بن جعفر ، الذى بذل مابذل ، فى سبيل إخضاع النقد الأدبى للفلسفة والبلاغة المنطقية ، ومع ذلك بقى بعيدا به عن الذوق الادبى جملة ، وإلا فكيف يستطيع المنطق أو البلاغة الخاضعة لمقاييسه الفلسفية ، أن تنقد شيئا أخص عناصره الشعور ، هو الادب وأخصه الشعر ، هذا وان السبب الذى من أجله وقع قدامة فيما وقع ليتضح جليا فيما يأتى :

ترجم إسحق بن حنين ، فى النصف الثانى من هذا العهد ، كتاب الخطابة لأرسطاطاليس ، فقرأه العلماء وانكب عليه قدامة ، محاولا الانتفاع بما فيه من أصول ورسوم ، فى نقد الشعر ، فألف كتابه الموسوم بهذا الاسم يستدرك فيه -كما قال خطأ- وقع فيه النقاد ، ويستتم بوضعه نقصا عسر عليهم أن يستتموه ، هو أن توضع له -من حيث علم جيد الشعر من رديئه- قواعد وضوابط تخضع لها هذا النقد ويستغلها من بعده الناقدون ، كما هى الحال فى شتى المعارف والعلوم ، مستعينا على ذلك كله بالمنطق المثبت فى كتاب أرسطاطاليس ، وبقواعد البلاغة التى أفاض فيها واضعه على هدى الفلسفة والمنطق ، لا الادب والذوق ، فكان من جراء ذلك ، أن قرر قواعد للنقد أهمها ما يأتى :

١ - عرف الشعر بأنه قول موزون مقفى يدل على معنى ، ولم يقف فى فى التفضيل موقف إبن قتيبة عند حد اللفظ يكون حسنا وغير حسن ، والمعنى يكون جيدا وغير جيد ، والأضرب الاربعة التى استنبطها من تداخل هذين فى هذين ، وانما ضم فى هذا التفضيل الى عنصرى اللفظ والمعنى عنصرين آخرين هما الوزن والقافية ، ونظر الى كل من الأربعة نظرة مفردة ، فجعله لذاته حسنا وغير حسن ، ثم عاد فنظر إلى اللفظ من حيث ائتلافه مع المعنى ومع الوزن ، والى المعنى من حيث ائتلافه مع الوزن ومع القافية ، فجاءت الضروب عنده ثمانية لا أربعة ، وكان هذا التوليد الاخير على تحكمه غير منطقى ،

وإلا فلماذا لم يجعل لكل من اللفظ والوزن ائتلافا مع القافية ، حتى يستتم التقسيم المنطقي ، ثم هو وقد ذكر هذه الائتلافات ، كأنه ضرب صفحا عن الجهة الروحية لتقسيم ابن قتيبة ، من وجهة أن للفظ فى حسنه أو عدمه علاقة بالمعنى ، كما أن للمعنى فى جودته أو عدمها علاقة باللفظ ،ومع هذا فلننظر إلى بعض قال :

ـــ عنى بالحسن فى اللفظ أن يكون سمحا سهل مخارج الحروف من مواضعها عليه رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة ،ثم أتى بشواهد من هذا الشعر ، دون أن يبين فيها ماأراده من تلك السمات ، وحين تعرض لمعايب الألفاظ لم يزد على أن ذكر أمثلة مما يذكره البلاغيون المنطقيون فيما يخرج بالألفاظ عن دائرة الفصاحة. وليس أمر النقد هنا يقف عند الذى يقول وإنما للنقد فى هذه الناحية تحليقات روحية لاتخضع لهذه القواعد المادية ، ألا ترى أن كلمة يؤذى حسنة فى قوله تعالى من آية الاستئذان « إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى منكم والله لا يستحيى من الحق » بقدر ماهى مستهجنة فى بيت المتنبى :

تلذ له المروءة وهى تؤذى ومن يعشق يلذ له الغرام

ـــ وعنى بالحسن فى المعنى ماسنذكره فى النبذة التالية الثانية التى خصصناها له لما تورط فيه من منطق عميق .

ـــ وعنى بالحسن فى الوزن أن يكون سهل العروض وأن يتوخى فيه الترصيع وهو فى الشعر بمثابة السجع أو الزواج فى النثر ثم مثل بطائفة يرى فيها تلك السهولة وأخرى يتحقق فيها الترصيع ، فأما الترصيع فلا شأن لنا به ولا يجوز أن نعد له شأنا لأنه محسن بديعى لايسلب الكلام الحسن لخلوه منه ، وأما السهولة فان أمثلته عليها تفهم أنه عنى بها البحور قصار التفاعيل ، أو مجزوءات طوالها،وليس الأمر كما ذكر،لأن السهولة كما تكون فى الطويل تكون فى القصير من البحور ، ولأن القصير منها إنما يحمد حين يلهو الشاعر ويميل إلى الغناء والترقيص،أما من يجد ويفيض فانما يتطلب الوزن الطويل ، ثم هو حين تعرض بعد لعيوب الوزن لم يزد على ماذكره علماء هذا الفن من عيوب فى

التفاعيل وبخاصة الأضرب والأعاريض من علل وزحافات .

- وعنى بالحسن فى القافية أن تكون عذبة الحرف سلسة المخرج ، وأن تقصد لتصريع البيت الاول من القصيدة ، وذكر أن بعض الشعراء كان يوقع التصريع فى بعض الابيات خلالها ، لم يزد على ذلك وعدد عليه الشواهد ، دون أن يفصح عما أراد من عذوبة حرف القافية ولا سلاسة مخرجها ، وحين تصدى لمعايبها ، لوح بما ذكره علماء الفن فى عيوب القوافى من إقواء وإيطاء وسناد ، وعرج إلى ماسماه بالتجميع وعرفه بتأتى العروض على غير ما يهوى الضرب من مجيئها على رويه ، كأنه يريد التصريع ، وليس ذلك بالعيب كما يقول :

- ثم عنى بائتلاف اللفظ مع المعنى المساواة بالمعنى الذى يريده البلاغيون ، ولكنه عد منه أنواعا لا تتفق مع المساواة ، إذ جاء بعضها من الإيجاز كالاشارة وبعضها من الأطناب كالأرداف ، وبعضها لا يقصر على ناحية من هذه النواحى الثلاث كالتمثيل ، والعجب أنه حين تصدى لمعايب هذا الائتلاف ذكر ما ذكره البلاغيون حين تعريف المجاز والأطناب من إخراج ماليس منهما ، كالاخلال والحشو ، أما الايجاز الحق والأطناب الحق فكأنهما لاموضع لأحدهما ألبتة مع هذا الائتلاف بين اللفظ والمعنى ، وهما منه فى الصميم كالمساواة بل أشد من المساواة .

- وعنى بائتلاف اللفظ والوزن شيئاً عجباً هو قوله أن تكون الأسماء والأفعال فى الشعر تامة مستقيمة كما بنيت ، وأن تكون فى أوضاعها من الأقوال المؤلفة منها ، ثم عد منه ألا يضطر الوزن إلى ذكر معنى ليس من غرض الشعر ، أو إسقاط معنى هو من غرضه ، وحين تعرض لمعايبه عد أموراً بدهية كالحشو والتثليم والتذنيب وغيرها مما هو من عيوب العروض ، وكل الذى قاله هنا لايخرج عن القواعد والضوابط البلاغية ، كما هى هوايته وكلها معروفة .

- وعنى بائتلاف المعنى والوزن أن تكون المعانى تامة مستوفاة لم تضطر باقامة الوزن

إلى نقصها عن الواجب ، ولا إلى الزيادة فيهـــا عليه ، وأن تـكون أيضاً مواجهة للغرض لم تمتنع عن ذلك وتعدل عنه من أجل إقامة الوزن والطلب لصحته ، وإنى لست أفهم من صدر هذه العبارة غير الذى عناه بعجز عبارته فى ائتلاف اللفظ والوزن ، أما عجزها فهو وصدر تلك فى البداهة سواء ، وإن كان قد بذ زميله فى الميل إلى عبارات المناطقة التى تأباها عبارة كتاب فى نقد الشعر ، وحين تعرض لعيوب هذا الائتلاف وقف شواهده على ما يعرف عند البلاغيين بالقلب ، والفرق أنه عابه وهم لم يعيبوه .

ــ وأخيراً عنى بائتلاف المعنى والقافية ، أن تـكون القافية من معنى البيت ، تعلق نظم له وملاءمة لمـا مر فيه ، وحين تعرض لعيوب هذا النوع قال ، أن تـكون القافية مستدعاة قد تكلف الشاعر فى طلبها فاستعمل معنى سائر البيت ، ومثل لذلك بأبيات منها .

وسابغة الأذيال زغف مفاضة تـكنفها منى النجاد المخطط

زاعما أن لا علاقة لتخطيط النجاد بتجويد نعت هذه الدروع ، وليس الأمر كما قال ، إذ لا يبعـد أن يكون الشاعر ـ هو على بن محمد البصرى ـ لحظ المشابهة بين الدرع والنجاد المخطط ، أو أن يكون أراد أنه من المترفين الذين كما يغلون دروعهم يبالغون فى أكسيتهم أو غير ذلك .

٢ ـ ولما تعرض لمعانى الشعر ، ذلك العنصر الذى أرجأنا الكلام عليه لطوله حين عن موضعه ، قال يعبر عن وصف الحسن فيه « وجماع الوصف لذلك ، أن يكون المعنى مواجهاً للغرض المقصود ، غير عادل عن الأمر المطلوب » وبعد أن ذكر أن أقسام المعانى التى يحتاج فيها إلى أن تـكون على هذه الصفة مما لا نهاية لعددها ، رأى أن يقتصر منها على ستة كانت المقدمة فى أغراض الشعراء ، وهى المديح والهجاء والمراثى والنسيب والوصف والتشبيه ، وأخذ يدون رأيه فى كل منها ، وها نحن أولاء مجملوه :ــ

ــ قال عن المدح مترسما خطا كتاب الخطابة ومتخذا لغة المنطق وتحكماته : إنه لما كانت فضائل الناس « من حيث إنهم ناس ، لا من طريق ما هم مشتركون

فيه مع سائر الحيوان ، على ما عليه أهل الألباب من الاتفاق فى ذلك ، إنما هى العقل والشجاعة والعدل والعفة ، كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع الخصال مصيباً ، والمادح بغيرها مخطئاً ، وأخذ يضرب الأمثلة القاصدة اليها أو إلى إحداها أو إلى فرع من إحداها ، مع عده المادح فى الحالة الوسطى مقصراً ، وفى الحالة الثالثة أشد تقصيراً ، لوقوفه دون حدود الاستيعاب ، وهذا تحكم منه شديد ، فليس كل مدح قصد إلى هذه النواحى جيداً ، كما ليس كل مدح خلا منها رديئاً ، ولسنا نحتج عليه فيما نقول إلا بقوله هو ، فانه حين تعرض لعيبه وهو يذكر فضل قول عبد الله بن قيس الرقيات فى مصعب بن الزبير .

إنما مصعب شهاب من اللـــه تجلت عن وجهه الظلماء

على قوله فى عبد الملك بن مروان :

يأتلق التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

نسب عدم رضا عبد الملك عن هذا البيت إلى خلوه من الصفات النفسية الأربع التى عددها ، ناسياً أن البيت الأول الذى فضله عبد الملك ورضى هو عن هذا التفضيل خلو منها أيضاً .

ـ وقال فى نعت الهجاء ـ إنه قد سهل وجه الهجاء ، وطريقه ما تقدم فى قولنا فى باب المديح وأسبابه . إذ كان الهجاء ضد المديح ، فكلما كثرت أضداد المديح فى الشعر ، كان أهجى له ، ثم تنزل الطبقات على مقدار قلة الأهاجى فيها وكثرتها ، وحين تعرض لعيبه قال ، وجماع القول فيه أنه متى سلب المهجو أموراً لا تجانس الفضائل النفسية ، كان ذلك عيباً فى الهجاء ، ثم عدد أموراً كثيرة يقع بها الهجاء خطأ لأنها ليست من تلك الفضائل ، ولكنه لم يكن دقيقاً فى الوقوف عند القيود التى قيد بها نفسه ، فقد ذكر أن من تلك الأمور ، أن تنسب إلى الشخص أنه مقتر ، مع أن التقتير فرع يتصل بأحد تلك الصفات إذ هو ضد الجود والجود من الشجاعة ، على أنه ذكر أموراً أخرى الهجاء فيها موجع ، حاكما عليه بأنه ليس جاريا على الحق ، كأن ينسب إلى الشخص أنه من قوم ليسوا بأشراف ولو كانت خصاله كريمة ،

والهجو بهذا النوع له فى الشعر العربى مكان واعتبار .

ـ وقال فى نعت المراثى ـ ليس بين المرثية والمدحة فصل ، إلا أن يذكر فى اللفظ ما يدل على أنه لهالك ، مثل كان وتولى وقضى نحبه وما أشبه ذلك ، وهذا ليس يزيد فى المعنى ولا ينقص منه إلى أن قال ـ وإذ قد تبين بما قلنا آنفاً أنه لا فصل بين المديح والتأبين إلا فى اللفظ دون المعنى ، فإصابة المعنى به ومواجهة غرضه ، هو أن يجرى الأمر فيه على سبيل المديح . وحين تعرض لعيوب المراثى قال ، وفيما قدمته فى باب نعوتها ما أبان عن الوجه فى باب عيوبها ، إذا كان النظر صحيحاً والفكر سليما ، ومما ذكر عن هذه الفنون الثلاثة ترى أيها القارىء أنه حصرها كلها فى باب الفضائل النفسية حاذياً حذو أرسطاطاليس فى كتاب الخطابة كما ألمعنا حيث الكلام على المديح ، وهذا تحكم لا مبرر له ، على أنه مع ما أصاب فى تطبيق كثير من الشواهد ، أخطأ فى بعض ليس بالقليل ، كما ذكرنا آنفاً فى بيت ابن الرقيات .

ـ وقال فى نعت النسيب ـ يجب أن يكون النسيب الذى يتم به الغرض هو ما كثرت فيه الأدلة على التهالك فى الصبابة ، وتظاهرت فيه الشواهد على افراط الوجد واللوعة ، إلى آخر ما قال ، وقد أجاد وأفاد فى تصوير هذا الفن لأنه خرج به عن تلك الدائرة التى ضربها على نفسه ، فى الفنون الثلاثة السابقة ، وجعل النسيب يشمل مع نعت النساء ، والتودد اليهن ، وتصرف أحوال الهوى معهن ، ما يتصل به من التشوق لمعاهدهن ، بالرياح الهابة والبروق اللامعة والحمائم الهاتفة ، والخيالات الطائفة والآثار العافية وغيرها مما يكون ذكره دليلاً على عظيم الحسرة وشديد اللوعة ، وكما أحسن التصوير أجاد التمثيل ، وأجاد أيضا نعت عيبه ، إذ قال ، إنما هو مضادة ماقدمنا ذكره فى باب نعته ، ثم مثل تمثيلا صائباً .

ـ وقال فى نعت الوصف متحدثا عن شعرائه ، أحسنهم من أتى فى شعره بأكثر المعانى التى الموصوف مركب منها ، ثم بأظهرها فيه وأولاها ، حتى يحكيه بشعره ويمثله للحس بنعته ، وهو تعريف صائب المعنى ، ولكنه فى عبارته

من كلام المناطقة ، وإذا صح أن نأخذ عليه هنا شيئا ، فهو تقصيره فى التمثيل للوصف ، إذ وقفه على قلة من الشواهد ، وعلى أبيات مفردة فى بعضها ، وفى هذا إجحاف بالمكانة العريضة للوصف فى الأدب على جميع عصوره ، على أنه لم يتعرض هنا للمعايب وهذا تقصير آخر .

– وقال فى نعت التشبيه – إن أحسنه هو ماأوقع بين الشيئين اشتراكا فى الصفات أكثر من انفرادهما فيها ، حتى يدنى بهما إلى حال الاتحاد ، وأكثر من التمثيل لذلك نصيبا ، ثم لم يتعرض لمعايب التشبيه كما فعل مع الوصف ، وإن لنا لاعتراضا أصيلا فى عده التشبيه من فنون الشعر ، وسلكه إياه فى سلك الخمسة السابقة ، وهو ليس بفن ، وإنما هو معنى شعرى يتصل بسائر الفنون ، هذا مع تركه فنونا كانت جديرة بالايراد .

٣ – وأخيراً أهمل قدامة أن النقد الأدبى فن لاعلم ، وأنه لذلك لايخضع لقواعد عامة مطردة ، كما تخضع العلوم ، وإنما يخضع للذوق الفنى ، الذى هو عماد فهم النصوص وتذوقها والاحساس بما فيها ، من رقة وعذوبة فى الاسلوب ، وإصابة وإجادة فى المعنى ، وأنه لاختلاف أذواق الناقدين ، يجىء مثلها مختلفاً فى مناحيه ومراميه ، ثم إنه يعتمد فى الناقد أكثر مايعتمد على عناصر ثلاثة ، أولها أن يكون الناقد ملماً باللغة ، وواسع الأفق فى الأدب ، وما يتصل به من معارف وأخبار ، والثانى أن يكون ناضج الذوق الأدبى ، مكتمل الملكة النقدية ، وهذه ناحية على مالها فى العنصر الأول من مدد ، ترتكز على الهبة الغريزية والاستعداد الفطرى ، والثالث أن يكون على دراية بالأسس العامة ، التى اهتدى اليها النقاد فى تطور الآداب ، فاذا مااستكملت لديه هذه العناصر الثلاثة ، كان جديراً أن يدخل حلبة النقد ، ويجرى مع النقاد ، ولكن مع شىء آخر ، يعتبر صمام الأمان ، هو ألا يسمح لتلك الأسس ، وهى أشبه بالقواعد ، أن تطغى على طبيعة الأدب التى تأبى الخضوع والاستسلام .

وبعد فسواء أكان قدامة يجهل هذه الأمور ، أو يعلمها ـ وهو ما نغلب ـ ولكن غلب عليه المنطق ، فانه تنكب فى اتجاه كتابه « نقد الشعر » المهيع الحق للنقد على ماله فيه من محاسن ، وخير ما يعترف له به فى الكتاب من ميزة ، هو أنه ابتكر بعض الفنون البلاغية بعد ابن المعتز ، وهيأها للخلف ، الذين جروا فى فهم البلاغة على طريقة المناطقة والفلاسفة ، فحق لذلك أن يعد منهم لا من الأدباء النقاد .

السباعى بيومى